

حِجْرَةُ الْفَقْدِ الْأَسِيلِ

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة
ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »
« قرآن كريم »

هَامِي سَحَابَه

تفسير

بقلم الأستاذ الكريم عبد العزيز بك عطية

المراقب المساعد لمنطقة البحيرة التعليمية

ورئيس الإخوان المسلمين بالاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأصلى على سيدنا ومولانا محمد الهادى إلى سبيل
الرشاد (وبعد) فقد قرأت هذه الرسالة ، حركة الفقه الإسلامى ،
للأخ الأستاذ حلى شحاته وقد سرتنى فيها بحث عميق واطلاع واسع
دقيق . وقد بحث الأستاذ فيها تطورات الفقه الإسلامى فى أعصاره
الأولى من لدن الرسالة حتى شيوع المذاهب الفقهية ودعا الأستاذ
إلى اتباع فقه السنة بعدما أوضح اختلاف مأخذ الفقه عند الأئمة .

وإذا كان عصر الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجتمع فيه من
القضايا والأمور المستحدثة ما حصل فى العصور بعده وكذلك عصر

الخلفاء فإنه لا بد من القياس فيما يمكن القياس فيه والاجتهاد بما يمكن الاجتهاد فيه بما لا يخرج عن أصول الدين . ولقد حصل الاجتهاد في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يرسلون إلى الأقاليم ليعلموا الناس ويرشدوهم وحصل مثل ذلك في عصر الخلفاء والتابعين .

وليس أصحاب المذاهب إلا أصحاب رأى واجتهاد وعلم بعدوا قليلا أو كثيراً عن عصر الرسالة واستحدثت أمامهم أفضية مختلفة في بلاد ذات عوائد ومدنيات مختلفة فكان لا بد من استحداث آراء وقواعد تحمل على أساسها مشاكل الناس .

وهؤلاء لم يبعدوا عن الحديث والكتاب ولم يدعوا لأنفسهم علما خاصا إنما آراؤهم تنوعت بحسب ما توافر لدى كل منهم من أسباب الاستدلال . وكانوا كلما أعوزهم الحديث جابوا الآفاق إليه وابتهلوا منه ، ولم يكن يعوزهم فهم القرآن ومعرفة كيفية الأخذ منه إذ كانوا علماء لغة كما كانوا علماء شريعة .

وقد دون أصحاب المذاهب مذاهبهم في الفقه سواء كان في العبادات

أو المعاملات على الطريقة العلمية بعد الترتيب والتهديب والتبويب
وجاء أتباعهم فزادوا في ذلك الترتيب وأكثروا من الشروح
وأضافوا الفتاوى بما جعل هذه المذاهب صالحة للأخذ منها والتعلم
يسر وسهولة .

والرأى عندى أن الاختصار على فقه السنة ما يزال محتاجا إلى
بحث طويل وأن فقه السنة نفسه ما يزال محتاجا إلى تبويب على
وبحث تجريبي وتطبيق كثير حتى يتيسر الأخذ منه لا في العبادات
وهي أيسر أخذا بل في المعاملات والفتاوى الفقهية في البيع والرهن
والحيازات وغيرها . وإلى أن يتيسر ذلك ويتوسع فيه وتؤلف فيه
الموسوعات العلمية فانتا نأخذ منه ومن المذاهب القويمة ما نقيم به
أمور الدين .

هدانا الله إلى العمل بكتابه وسنة رسوله والسلام ؟

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين »
رأيت في المسلمين اضطرابا في الأخذ بأساليب الفقه، فمنهم من يتبع « فقه المذاهب » ومنهم من يتبع « فقه السنة » .
والذين يتبعون فقه السنة ينعمون بخير عظيم لنقاء المصادر التي يستقون منها وصفاء المنهل الذي يغترفون منه ، وبناءون بأنفسهم عن مواطن الفرقة والخلاف .
يبد أنه لزام عليهم أن يبينوا للناس عن حقيقة فقههم وعن مصادره وعن نشأته وتطوره ؛ حتى يعم الناس نفعه فينعموا بمثل ما نعم به أنصار السنة وأتباعها .
حقيقة إنهم لم يقصروا في إثبات ذلك للناس ، وغاية الأمر أنهم لم يفصلوا القول فيه تفصيلا واكتفوا بأن يعطونا فكرة عامة عابرة عنه .

لهذا أراني مدفوعاً إلى أن أتقدم بجهد متواضع في هذا السبيل ؛ لعل علماءنا وفقهاء سنة نبينا يفصلون القول فيه تفصيلاً ويظهروننا منه على ما لم نكن نعلم ، وآمل أن يثير ذلك همهم فيشفوا غلتنا وينقحوا ظلماتنا .

ولم أشأ أن أقتحم باب الموضوع اقتحاماً وإنما آثرت أن استخلص الرأي فيه استخلاصاً ؛ لهذا تناولت ، حركة الفقه الإسلامي ، في شتى عصورها واستخلصت منها لزوم اتباع فقه السنة .

فإن أكن وقعت إلى ما أردت فذلك ما تمنيت ، وإن أكن أخفقت أو أخطأت أو قصرت فعذري في ذلك أني لا أزال في أول الطريق إلى الحقيقة وفي مرحلة بدء المعرفة وفوق كل ذي علم عليم .

عليه سمان

الإسكندرية في ١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠
١٩ من مارس سنة ١٩٥١

حركة الفقه الاسلامي

نتتبع هنا بالدراسة حركة الفقه في عصوره المختلفة لنعلم مم يستقى ، وما هي صورته : ما هو فقه السنة وما هو فقه المذاهب ، ولم نلزم باتباع هذا النوع الأول من الفقه .

.....

أولا : عصر الرسالة والخلافة

١ - نزل القرآن المبارك على محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد بين الله سبحانه وتعالى فيه أحكام الفقه من معاملات وعبادات وحدود وغيرها ، وأمرنا أن نتعبد . بما جاء فيه ، فكان القرآن بذلك المصدر الأول لشريعتنا .

٢ - وأمرنا الله أن نطيع نبيه وأن نحتكم إليه ، قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ،

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ، « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما .

ومن هنا كان اتباع الرسول لازما فيما يبلغه عن صاحب الشرع سبحانه وتعالى من سنة أوحى بها ، أو لم يوح بها وأقره الله عليها ، وسواء كانت قولا منه صلى الله عليه وسلم أو فعلا أو إقرارا .

وبذلك كانت السنة المصدر الثاني لشريعتنا .

٣ - ولكن شيئا اختلفت به السنة عن القرآن ، وهو أن القرآن دون كله في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكما نزلت منه آيات أمر النبي كتّاب الوحي بتدوينها ، أما السنة فلم أمر النبي بتدوينها بل تركت مفسرة في صدور أصحابه ، حية في أعمالهم ، لا يجمعها كتاب ولا يضمها سجل ؛ حتى إن الإمام

أحمد بن حنبل يروى لنا في مسنده عن أبي هريرة قال : « كنا
قعوداً نكتب ما نسمع عن النبي ، فخرج علينا فقال : ماذا
تكتبون ؟ فقلنا : ما نسمع منك ، فقال : أكتب مع كتاب
الله ؟ فقلنا : ما نسمع ، فقال : اكتبوا كتاب الله ، ، المحضوا
كتاب الله ، قال : فجمعنا ما كتبنا في صعيد واحد وأحرقناه
بالنار . »

فارسول إذن لم يكن يأمر بتدوين السنة على غرار ما كان
يأمر بتدوين آي الكتاب ، وذلك لما كان يخشاه من أن تختلط
السنة بالكتاب فإذا أمن الخلط بينهما أجاز كتابة السنة ، وفي
ذلك يروى لنا ابن عبد البر في « جامع بيان العلم ، أن عبد الله
ابن عمرو بن العاص قال : « كنت أكتب كل شيء أسمعه من
رسول الله أريد حفظه ، فنهني قريش وقالوا : اترك كتاب كل
شيء تسمعه ورسول الله يتكلم في الرضا والغضب ، فأمسكت
عن الكتابة فذكرت ذلك لرسول الله ، فأولماً بأصبعه إلى فيه
وقال : اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق ، . »

زد على ذلك أن النبي كان يأمر بتبليغ السنة وحفظها
والتمسك بها ؛ فكان يقول : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ،
فرب مبلغ أوعى من سامع » . وكان يقول : « نضر الله امرءا
سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ؛ فرب حامل فقه إلى من
هو أفقه منه . »

وكان يقول : « لقد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما :
كتاب الله وسنتي » .

٤ - وهكذا انتهى عهد الرسالة والسنة ليست مدونة كلها
كالقرآن ، وجاء عهد الخلافة فأخذ الخلفاء يتبعون ما نطق به
الرسول من قول ، وينفذون ما قام به من فعل ، ويقررون
ما أقره ، وينكرون ما أنكروه ، ويسيرون في كل ذلك على
ما رأوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا عرضت لهم
حادثة بحثوا في كتاب الله عن حكمها فإن وجدوه فيها ونعمت
وإلا بحثوا في سنة رسول الله ، وإلا أعملوا فكرهم واجتهدوا
مستندين في ذلك إلى الأصول العامة المستقرة في الكتاب والسنة

والتي قامت عليها الشريعة يؤيدهم في ذلك حديث معاذ بن جبل حين بعثه رسول الله إلى اليمن وسأله : « بهم تقضى ؟ » قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد . قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم يجد . قال : اجتهد رأيي . قال رسول الله : الحمد لله الذي وفق رسول الله إلى ما يرضى الله ورسوله . وبهذا فتحت الشريعة للمؤمنين بها باب الاجتهاد على مصراعيه .

ثانيا : عصر المذاهب

١ - ظل الناس في عهد الخلافة يتعبدون بما رأوا عليه النبي وصحابته حتى كان ظهور أبي حنيفة النعمان في الكوفة ، فقسم مسائل الفقه ووضع لها الأصول والقواعد ، وكون لنفسه مجموعة من الآراء في الفقه دونها تلاميذه أطلق عليها اصطلاح « مذهب أبي حنيفة » .

وقد امتدت حياة أبي حنيفة من سنة ٨٠ هجرية إلى سنة ١٥٠ ، أي ٧٠ عاما ، نشر فيها مذهبه وتبعه تلاميذ أكبرهم أبو

يوسف الذى كان قاضى القضاة فى الدولة العباسية .

٢ - ومن بعد أبى حنيفة ظهر إمام المدينة مالك بن انس
وكون لنفسه مذهباً جديداً يختلف بطبيعة الحال فى أمور عن
مذهب أبى حنيفة

وقد امتدت حياته من سنة ٩٣ إلى سنة ١٧٩ هجرية .

٣ - وقد تلمذ له كثيرون منهم الشافعى الذى صار إماماً
وصاحب مذهب كبير وامتدت حياته من سنة ١٥٠ هجرية إلى
سنة ٢٠٤ . ولما رحل إلى مصر سنة ١٩٩ غير فى آرائه واستحدث
آراء جديدة لم يكن يراها فى العراق .

٤ - ثم جاء من بعده أحمد بن حنبل وتلمذ للشافعى ثم
كون مذهباً مستقلاً ، وقد امتدت حياته من سنة ١٦٤ إلى سنة
٢٤١ هجرية .

هذه هى المذاهب الأربعة المشهورة ، ولكن ليست هى
وحدها المذاهب التى ظهرت على مسرح الفقه ؛ فقد ظهر غيرها
كثير مثل مذهب الأوزاعى ومذهب الليث بن سعد الذى قال

فيه الشافعي : الليث بن سعد أفقه من مالك ولكن قومه ضيعوه
(لم يدونوا مذهبه) ، ومذهب داود الظاهري الذي بناه على
أساس العمل بظاهر الكتاب والسنة .

والذي نلاحظه على عصر المذاهب ما يأتي :

ا - أن المذاهب تقوم على الاجتهاد ، ولا اجتهاد إلا عن
مستند والمستند كتاب الله وسنة رسوله .

ب - أن الخلاف بدأت تظهر صورته بين جماعات المسلمين
أو بين مدارس الفقه أو بين المذاهب .

ج - على أن أهم ما يلاحظ هو أن المذاهب بدأت بالاعتماد
على الرأي إلى حد كبير ثم أخذت تنحون نحو الحديث بعد ذلك
شيئاً فشيئاً ، فكان أول هذه المذاهب - هو مذهب أبي حنيفة -
أكثر المذاهب عملاً بالرأي حتى إنه قيل إن أبا حنيفة لم يرو
سوى سبعة عشر حديثاً ، ثم إذا جاء من بعده مالك بن أنس
وجدناه يضع لنا كتابه الموطأ ، بتكليف من الخليفة المنصور
ويجمع فيه مجموعة من الأحاديث ويأتي من بعده الشافعي فيضع

أيضاً كتابه «الأم» ، ثم يأتي من بعده أحمد بن حنبل فيضع
«مسنده» ، ويجمع فيه من أحاديث الرسول الشيء الكثير ، بل
وتغلب عليه نزعة الاعتماد على الأحاديث واحصائها حتى
اعتبروه محدثاً أكثر منه فقيهاً .

ثالثاً : عصر تجميع السنة

على أن حادثاً جليلاً له خطره وقع في عصر الإمام الرابع
أحمد بن حنبل غير مجرى الأمور تغييراً بعيداً ، ألا وهو بدء
حركة تدوين الأحاديث على نطاق واسع وبصورة دقيقة ؛
فقد عاصر الإمام أحمد ظهور البخارى أول من أنفق حياته
وبذل عمره وأخلص نفسه لجمع الأحاديث وتمحيصها ، ولقد
اشترط على نفسه شروطاً لقبول الحديث قصد منها إلى التحرى
والتدقيق والاحتياط والتأكد من صحة الحديث ؛ لهذا كان أصح
كتاب بعد كتاب الله .

وامتدت حياة البخارى من سنة ١٩٤ هجرية حتى سنة

٢٥٦ ، ولقد فتح أفاقا جديدة في عالم الفقه الإسلامى ، بل إنه حول تيار الفقه ؛ فقد تبعه فى حركة تدوين الأحاديث كثير من أصحاب الصحاح والسنن - فظهر بعده صحيح مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وأبو داود كما ظهر من أصحاب السنن الحاكم صاحب المستدرک والدارمى والبيهقى وكثير غيرهم .

وبظهور كتب السنة هذه تحول تيار الفقه وتغير مجرى الأمور ؛ إذ أصبح لزاما علينا أن نرجع إلى ما فيها من سنة ونعمل بها قبل أن نرجع إلى المذاهب نتعرف حكمها ، ولئن جاز لنا قبل تدوين السنة أن نتبع المذاهب فإنه لا يجوز ذلك بعد تدوينها ، وذلك للأسباب الآتية :

١ - إن أئمة المذاهب أنفسهم أمرونا باتباع الحديث إن صح ولو خالف مذهبهم :

١ - فمالك يقول وهو فى مسجد رسول الله : كل يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ، - وأشار إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ب - والشافعي يقول : « إن صح الحديث فهو مذهبي » .
ومنهم من يقول : « لا تأخذوا بقولنا حتى تعلموا من
أين أخذنا ، ويقول : « إذا رأيتم الحديث فخذوا به وألقوا
بكلامي عرض الحائط » .

٢ - إن حركة التدوين لم تدرك من المذاهب إلا أواخر
عهد ها ولم تظهر إلا في عهد آخر أئمتها ، ولو أنها سبقت المذاهب
لكان لأصحابها موقف آخر ، إذن لسلموا بما دون من صحاح
الأحاديث ولاستقاموا على طريقتهما وانكأوا على سنادتها .

٣ - أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « من عمل
عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ، أي كل عمل لا يوافق سنتنا فهو
مردود على صاحبه . وقد ظهر فعلا أن بعض الآراء التي تمخضت
عنها المذاهب لم توافق السنة ؛ ومن أمثلة ذلك :

١ - ذهب الحنفية إلى اشتراط الكفاءة في الزواج ، فالعربية
للعربي والقرشية للقرشي ، وأقاموا الكفاءة على أساس العنصرية
والنسب ، فخالفوا بذلك سنة الرسول الناطقة بأن « الناس

سواسية كأسنان المشط ، وقول الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

كما اشترطوا ألا يقل المهر عن ١٠ دراهم أو سبعة مثاقيل وسندهم في ذلك ضعيف .

ب - أن الشافعية أحلوا ذبيحة المسلم المتعمد ترك التسمية رغم قوله تعالى « ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » . واعتمدوا في ذلك على سند ضعيف . « المسلم يذبح على اسم الله - سمي أو لم يسم ، .

د - إن المذاهب لم تتجمع لديها من الأحاديث الصحيحة مثل ما تجمع لدينا الآن ، ولقد قدمنا أن أول المذاهب ظهوراً كان أقلها حديثاً وكان أكثرها عملاً بالرأى ، وفي إطلاق العنان للرأى تعريض للزلل والخطأ .

هـ - إن المذاهب اختلفت فيما بينها لا في فروع المسائل فحسب ، وإنما في قواعد أصول الفقه أيضاً وفي مناهج البحث

وفي طرائق استنباط الأحكام من النصوص - ومن أمثلة ذلك :

١- أن ما يفهم من عكس النص ، وهو ما يسمى مفهوم المخالفة ، ليس حجة عند الحنفية (وهو حجة عند الشافعية .

ب - أن دلالة العام ، (أى اللفظ الذى يتناول أفرادا غيره تدرج تحته) قطعية عند الحنفية وظنية عند أكثر المالكية والشافعية .

٦ - أن الاختلاف بين المذاهب أدى أحيانا إلى تعصب بغض مقيت - حتى إن بعض الشافعية مثلا كان يحرم على نفسه تزويج ابنته للمالكي ، فإن أجاز ذلك فعلى قياس جواز زواج المسلم بالكتانية ، وكان بعض الحنفية يحرم على نفسه الصلاة وراء إمام حنبلى ، وأن اتباع المذاهب فى الأزهر كان يضرب بعضهم وجوه بعض حمية وتعصبا وقد نهوا عن ذلك على لسان الرسول والقرآن .

٧ - أن الخلاف لم يقع بين مذهب ومذهب فحسب ؛ بل

وبين أتباع المذهب الواحد أنفسهم فكل مذهب هو مدرسة
فقهاء تضم مجموعة من الآراء لا يجمعها إلا وحدة الاتجاه في
التفكير .

٨ - أن الاختلاف دائما سبيل إلى الفرقة والعداوة وأما
من قال : « اختلافهم رحمة » فهو كالذي يغري الناس بالشر
ويغري الفتنة بين القوم ، ولم يكن الخلاف رحمة في يوم من
الأيام وقول الله تعالى قائم يشهد « ولا يزالون مختلفين ، إلا
من رحم ربك » ، فمن رحمه الله أنقذه من الفرقة والاختلاف .

٩ - إنه من العبث التوفيق بين آراء المذاهب وإبراز
بمجموعة « للفقهاء على المذاهب الأربعة » فأيسر منه تكليفا وأخف
مثونة أن نذيع سنة الرسول وكتب أحاديثه .

ثم من الذي قال إن المذاهب أربعة فقط حتى نجعلها في
سفر واحد ؟ وكيف نفضل المذاهب الأخرى كمذهب
الأوزاعي والظاهرى والزيدى وغيرهم ؟

١٠ - إن تقليد إمام واحد في كل ما صدر عنه فضلا عن

أنه مستحيل ، فهو كذلك غير جائز ، لأن التقليد المطلق ينقلب إلى عبادة مطلقة .

ولذلك فإن أحدا من الأئمة لم يلزم الناس باتباع مذهبه ، ولكن أتباعه هم الذين ألزموا أنفسهم باتباعه وحصروا أنفسهم في نطاقه .

١١ - انه ليس ثمة أى معيار للتفضيل بين مذهب ومذهب وانتشار مذهب وانزواء آخر لا يرجع الى قوة الأول وصحة آرائه ولا إلى ضعف الثانى وسقم أفكاره ، بل إن العوامل السياسية كان لها فى أغلب الأحيان الأثر الفعال فى ذيوع المذهب أو خموله ؛ فذهب أبى حنيفة ذاع وانتشر لأن السلطان احتضنه فمن الثابت فى التاريخ أن الخليفة العباسى اتخذ أبا يوسف قاضى قضاة دولته وكان أغلب القضاة الذين يختارهم من الحنفية وجات الحكومات الإسلامية المتعاقبة فرأت ذلك المذهب مطبقا فى مجاكمها فتبعته واستقرت عليه ، وأصبح الجمهور كذلك ملما به عالما بأحكامه ؛ فالروح الديوانية إذن هى التى جعلت

الحكومات تميل إلى الإبقاء عليه، وظل المذهب الحنفي هو المطبق في دور القضاء حتى الدولة العثمانية بل وحتى يومنا هذا في المحاكم الشرعية دون غيره من المذاهب .

على حين أن مذهب أحمد بن حنبل لم يتح له نصيب وافر من الذيوع والانتشار لأن الظروف السياسية لم تواته .

١٢ - إن أئمة المذاهب وإن كلاً منهم من رسول الله ملتصق - إلا أنهم لم يلتصقوا أو لم يستطيعوا أن يلتصقوا من الرسول بقدر ما التمسناه منه في كتب السنة ، لأنهم حين بدءوا تشييد مذاهبهم لم تكن الأحاديث جمعت كالיום ولم تكن المطابع قد ذاعت كالآن .

رابعاً : قفل باب الاجتهاد

وفي القرن الرابع أعلنت مجموعة من العلماء الرسميين بإيعاز من السلطان قفل باب الاجتهاد ، لما قيل من انتشار فوضى الآراء في ذلك العهد .

والواقع من الأمر أن الذين قرروا قفل باب الاجتهاد كانوا قوما ضعفت ثقتهم بأنفسهم واثاقل عليهم الركود والجمود حتى قالوا إنه ليس في عصرهم من تتوافر فيه شروط المجتهد ، وأنه لن يوجد في المستقبل من تتوافر فيه هذه الشروط ، وعليهم إزاء ذلك أن يعكفوا على تقليد المذاهب دون أن يستحدثوا جديداً فيها .

وقد كان ذلك عقالا للتفكير الإسلامي وسجن لعقول المسلمين وغلا قيد الأفهام ردحا من الزمان وكبتا للطاقة الحيوية الكائنة في الإسلام .

ولقد أدى إلى جمود المسلمين لا في ناحية الفقه فحسب وإنما في سائر نواحي تفكيرهم وفي كافة مرافق حياتهم ، في شئون دينهم ودنياهم على السواء .

لذلك هاجم الشيخ رشيد رضا ، رحمه الله قفل باب الاجتهاد ، وذكر أنه كان مكيدة من جانب السلطان وحيلة للحجر على العقول حتى تسهل عليه القيادة ويفضى إليه الزمام ؛

إذ الأمة الجاهلة - كما قال أحد الحكماء - أسلس قيادة من
الأمة المتعلمة .

وذكر الشيخ رشيد - عليه الرضوان - أن من العلماء من
اجتهد بعد قفل باب الاجتهاد ، كعلماء الشافعية ، ولكنهم -
طبعاً كانوا قلائل وكانوا لا يفتنون إلا إذا أمتوا مكر السلطان
ولو حيناً من الزمان .

ومن كل هذا يتضح أن ما أحدثه قفل باب الاجتهاد من
آثار هي :

١ - الرضا والتسليم بالتقليد دون الاجتهاد . و فرق بين
الاجتهاد والتقليد .

٢ - جمود المذاهب وعدم تقديمها الحلول الشرعية لما
تمحض عنه تطورا الأيام من مشكلات وعدم تقريرها الأحكام
لما استجد من صور المعاملات وغيرها من مظاهر نشاط الإنسان
المادى والروحى .

خامساً : دعاة السنة ونشوء فقه السنة

لكل ما قدمت من آثار اختلاف المذاهب وما طرأ عليها من جمود وما قام بها أحيانا من ضعف مرجعه قلة الاستناد للأحاديث ، أخذ يظهر من يدعوون إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة وحدهما وكان أكبر الداعين إلى ذلك ، ابن حزم الأندلسي ، الذي ولد سنة ٣٨٤ هجرية وتوفي سنة ٤٥٦ .

١ - واسمح لي يا أخى أن أقدم لك نبذة عن ، ابن حزم ، حتى تعرف إلى أى شيء كان يدعو الناس ، وكيف سار في دعوته فاضطهد وهو جئت تعاليمه :

كان ابن حزم كثير التأليف بصفة خاصة في فني الحديث والكلام ، إلى جانب تأليفه في اللغة والأدب . وبعد أن كان شافعي المذهب متحمسا لمذهبه تحول إلى الظاهر ، وأصبح ظاهريا متحمسا ، وقد ظهر أثر هذا التحول واضحا عندما ألف « رسالة في فضل الأندلس » .

والظاهر به قوم قالوا : لا نأخذ إلا بظاهر الكتاب والسنة
وننبذ ما عداهما ، ما لم يوجد دليل على خلاف ذلك . وقد قال
بهذه الفكرة داود الظاهري الذي ولد بالكوفة سنة ٢٠٤ هجرية
والذي ذكرت شيئا عنه من قبل .

وعلى ذلك كان ابن حزم لا يعتمد في فقهه إلا على الكتاب
والسنة ، وقد دافع بشدة عن رأيه الذي يبطل فيه كل قياس
فقهي لا يعتمد على القرآن والحديث في رسالته المسماة : إبطال
القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ، وألف كتابه
المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاقصار ، كان يستعرض فيه
رأى المذاهب وينقد ما فيها من ضعف ثم يقرر رأيه ويؤيده
بدليله من كتاب أو سنة .

والذي نلاحظه هو وحدته ونظره وميله للمناظرة ؛ فقد
هاجم النصارى واليهود والمسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وكان
كذلك خصما عنيدا ، قال فيه ابن حبان : يصك معارضة صك
الجنادل . وكان لا يغتفر خطأ وقع فيه إمام يحمله المسلمون

ويحترمونه كالأشعري وأبي حنيفة ومالك . ومن الأقوال الشائعة . أن قلم ابن حزم كان في مضاع سيف الحجاج .

ولكنه كان يتوخى إنصاف خصومه دائما ، ولم يكن من طبعه أن يتعمد اختلاق التهم الواهية عليهم .

ولقد صرح في رسالته الاخلاقية أن حدته كانت ترجع إلى مرض كان يلازمه ، وينتابه بعد أن نظر في الخلف واشتغل بالتأليف .

ولقد استهدف ابن حزم إلى حلق فقهاء عصره لتعريضه بالرجال البارزين من الفقهاء ، ولا شك أنه كان موضع الحسد من بعضهم لغزارة علمه ، وكان هؤلاء الحائقون ينهون عوامهم عن الاصغاء إلى أخطاء مذهبه وقراءة كتبه ويحذرون سلاطينهم من فتنته وطقق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم وكان مما يزيد في التخوف منه تشييعه ابني أمية ، وقد أدت دسائس هؤلاء الفقهاء المستمرة بابن حزم إلى أن يعتكف ببلده وأحرق مؤلفاته جهرة في أشيلية ، فندد بهذا التصرف

اللاحق في قصائد لا ذعة وواصل ابن حزم في عزاته المدرس والتأليف ، وذكر ابنه أبو رافع أن مصنفاته بلغت الأربعمائة وأن صفحاتها بلغت الثمانين ألفاً ولم يعد أكثرها عتبة باديته . هذا هو ابن حزم في أخذه بفقهاء السنة وفي تطرفه وفي اضطهاد القوم له .

والذي نلاحظه عليه أن دعوته إلى « فقه السنة » اقترنت بدعوته إلى « التوحيد » ، فقد هاجم أهل البدع والقائلين بالتوسل بالأولياء والذاهبين مذهب الصوفية وهاجم الفرق الإسلامية في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وهاجم لقيف الأشاعرة وخاصة رأيهم في صفات الله .

ولا أحب أن استطردهنا في دعوته إلى التوحيد حتى لا نخرج بالبحث عن موضعه ، ولم أسق الحديث عنها هنا إلا لتأكيد تلك الملاحظة التي أبديت : وهي افتتان الدعوة إلى فقه السنة بالدعوة إلى « التوحيد » .

٢ - هذا عن ابن حزم ، ثم يأتي من بعده شيخ الإسلام (ابن تيمية) الذي نشأ في دمشق سنة ٦٦١ هجرية وامتدت به

الحياة إلى سنة ٧٢٨ هـ ، وتقرن دعوته إلى (فقه السنة) بدعوته إلى (التوحيد) أيضا ولقد درس في بدء حياته الفقه الحنبلي بعد وفاة والده ، وبرع في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام ، ودافع عن السنة والسلف الصالحين من المسلمين بأدلة لم يسبق إليها مع أنها مستقاة من القرآن والحديث ولكن حريته في الجدل والمناظرة جلبت عليه عداوة الكثيرين من علماء المذاهب الثلاثة الأخرى ، فحكم عليه أن يلقى هو وأخواه في الحب بقلعة الجبل ثم بعد خروجه سجن بحبس القضاة لأسباب سياسية علم أثناءها أهل الحبس أصول الدين . وبعد أن أخل سبيله بأيام قلائل اعتقل في برج الاسكندرية ، وبعد خروجه منه أعتقل في قلعة دمشق فألف هناك مؤلفات عدة ، ولما وصل خبرها إلى أعدائه جرد من كتبه وأدواته ومداده فكانت صدمة قوية له مرض فيها وتوفي سنة ٧٢٨ هـ .

وهذه نبذة عن تاريخ حياة شيخ الإسلام ابن تيمية استطردت إليها لأظهر العنت الذي لقيه في سبيل دعوته إلى التوحيد والسنة والاضطهاد والذي عرقل أمامه سبيل دعوته .

والذى نلاحظه على ابن تيمية أنه كان من الخنابلة ولكنه رغم ذلك لم يتبع تعاليم ذلك المذهب من غير ما تبصر أو روية بل كان يعتبر نفسه مجتهداً في المذهب ويعطينا مرعى كاتب سيرته (الكواكب) عدة مسائل لم يأخذ فيها ابن تيمية (بالتقليد) ولا (بالإجماع) المدعى وهو يصرح بأنه كان يتبع القرآن والحديث بحرفيتهما في جل مؤلفاته ، ولكن كان في الوقت نفسه لا يرى من الخطأ أن يستعين بالقياس في مناطراته ، وعلى الأخص في (مجموعات الرسائل الكبرى)

٢ - ولقد تقلد لابن تيمية تلاميذ أخذوا عنه ودافعوا عن آرائه ونشروا كتبه ، على رأسهم ، ابن قيم الجوزية ، (ابن القيم على المدرسة الجوزية بدمشق) الذى عاش من سنة ٦٩١ هجرية إلى سنة ٧٥١ . وكان فى كل شيء تلميذاً أميناً لشيخه ابن تيمية وأخذ بجميع أقواله وناله من الاضطهاد ما ناله حتى فى حياة شيخه ، واعتمد أيضاً على الكتاب والسنة فى فقهه ، وجاهد فى سبيل إرساء عقيدة «التوحيد» .

٤ - حركة محمد بن عبد الوهاب، : في أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (أى منذ مائتى سنة تقريبا) قام فى نجد بالدعوة إلى فقه السنة وإلى عقيدة التوحيد محمد بن عبد الوهاب ، وقد انضم إليه كثير من سكان الجزيرة العربية ، أطلق عليهم خصومهم اسم الوهابيين أو المذهب الوهابى .

أما ابن عبد الوهاب وأتباعه فكانوا لا يرون أنهم أصحاب مذهب خاص ؛ لأنهم لم يأتوا بشئ جديد وإنما دعوا إلى الكتاب والسنة ونبذ ما يخالفها ، وقد اتصل مؤسس الوهابية بعلماء دمشق الحنابلة ، فمن الطبعى أن يكون قد استفاد من مؤلفاتهم وعلى الأخص تعاليم ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، فكانت حركة ابن عبد الوهاب هى التطبيق العملى لأراء ابن تيمية وتلميذه من تعبد بفقه السنة وتخليص لعقيدة التوحيد مما داخلها من شوائب .

وحركة ابن عبد الوهاب وإن كانت فى جوهرها سليمة إلا أنها قد شوهت لأغراض سياسية ، ومن نافلة القول أن سلطان الدولة العثمانية قد حاربها بجيوش طوسون وعمد هلى

وإبراهيم . ولقد ثانت حركة قوية على أى حال اذ أحدثت
البعيد فى الجزيرة العربية وما جاردها كمصر ولا يزال أثرها
باقيا حتى اليوم .

هـ - وإن من خيرة من خدموا فقه السنة ، محمد بن على
الشوكانى ، صاحب « نيل الأوطار » ، والدرارى المضية ،
وغيرها ، فقد كان من جلة علماء القرن الثالث عشر ، ولد
هجرة شوكان باليمن سنة ١١٧٢ هجرية وتوفى سنة ١٢٥٠ ،
وهو أول من وضع كتابا كاملا فى فقه السنة سماها « بالدرارى
المضية » اعتمد فيه على الكتاب والسنن وحدهما ونبذ جانبا
الحلقات المذهبية ، وما أجدر أصحاب المذاهب أن يتفقوا على
هذا النوع من الفقه الذى ليس لاختلاف الرأى فيه مدخل ،
وأن يميزوه فى مؤلفاتهم أو يفردوه كما فعل الشوكانى حتى يكون
ذلك أدنى لقلة الخلاف أو انعدامه فى قسم كبير من الفقه تجتمع
عليه طوائف المقلدة .

سادسا : حركة فقه السنة فى مصر الان

تقوم حركة فقه السنة فى مصر الان على اكتاف جماعتين :

ا - جماعة أنصار السنة المحمدية من ناحية .

ب - وجماعة الإخوان المسلمين من ناحية أخرى .

وتعتبر الأولى امتدادا للحركة الوهاية .

وتعتبر الثانية بعثا لتعاليم الإسلام الصحيحة ودعوة إلى

تطبيقها .

ونرجو أن تصل المهمة المبذولة من الجماعتين إلى المبلغ

الذى يجمع الناس حول الدعوة التى يدعون إليها ويجاهدان فى

سبيلها .

سابعا : كيف تتعبد بفقه السنة

تنقلت بك من قبل مع فكرة فقه السنة فى تطورها وكيف

تلقيها الدعاة وروجوا لها ، ولعلك يا أخى قد أصبحت مقتنعا

معى بضرورة التعبد بهذا اللون من الفقه .

- ١ - ولكن كيف نتعبد به وعلى وفقه ؟
- ٢ - وهل سيمعى الخلاف بين الآراء ؟
- ٣ - وهل سنكون فى غناء عما وصل إليه علماء المذاهب من آراء وما تمخض عنه اجتهادهم من أفكار ؟

١ - يقوم فقه السنة أساسا على الكتاب والسنة :

أ - فأما الكتاب فأمره ميسور ، فكله متواتر قطعى الثبوت وحقته قطعية الدلالة فى أكثره وكله لا خلاف فى صحته وثبوته .

ب - وأما السنة ، فمنها المتواتر ومنها خبر الأحاد ، والأول قطعى الثبوت قطعى الدلالة فى أكثره كذلك ، والثانى ظنى الدلالة وحقته ظنية ، والأحاديث منها القوى سندہ الثقات رواته ، ومنها الضعيف سندہ المتهم رواته ، ودرجات الصحة متفاوتة كما أن درجات الضعف متفاوتة كذلك ، فكيف نحتكم إلى السنة إذن ؟

الواقع : أن الأمر أيسر من ذلك بكثير ، فكل هذه

الأمور قد أفرغ رجال لها حياتهم ووهبوا لها وقتهم وخدموها
أجل خدمة ويسمى هؤلاء الرجال علماء مصطلح الحديث
والرواية وفقه السنة . وقد قرروا أن الحديث المتواتر حجة
ويعمل به دائما ، وأن الحديث الأحاد يعمل به ما لم يقم دليل
أقوى منه يعارضه من حديث متواتر أو آية قرآنية ، وفرزوا
لنا الأحاديث وعرفوا القوي منها والضعيف ، ودرسوا رجال
الحديث ورواته فعرفوا الموثوق منهم والمتهم ، وعينوا درجات
الصحة ودرجات الضعف ، ووضعوا كل حديث تحت نوعه
الذي يندرج تحته ، وكفونا متونة البحث والتنقيب وقدموا لنا
السنة خالصة صافية نقية من الميسور الرجوع إليها والأخذ
عنها والاعتماد عليها .

٢ - سنعتمد إذن على الكتاب والسنة ، ولكن لن نختلف
في فهمها واستخلاص الأحكام منها ؟

يا أخى : إن الخلاف ضرورى ، ما اختلفت العقول والنفوس
والبيئات والعصور ، ولكنه قطعا سوف تضيق دائرته إلى حد

بعيد إذا اتفقنا على وحدة المرجع والمصدر وتركنا التفريعات جانباً وخصوصاً بعد أن أصبحت السنة كلها تقريباً مجمعة ومحصنة.

٣ - وأخيراً : هل نستغنى عن المذاهب وآرائها ؟

إن رجوعنا إلى الكتاب والسنة مباشرة سيغنيانا إلى حد بعيد عن الرجوع إلى آراء المذاهب ، ولكن ذلك لن يقضى على قيمة المذاهب نهائياً ، فنحن مازلنا في حاجة إلى آرائها ، فستظل في المكان الثاني بعد الكتاب والسنة باعتبارها من وسائل التفسير أو الاستنباط أو الاستشارة أو الاسترشاد كلها أعوزنا فهم حكم من الكتاب أو السنة أو عرض لنا أمر لائنص فيه ، فنفيد عندئذ من ثمرة اجتهادهم ، ونرجع إليهم باعتبارهم علماء هذه الأمة وفقهاءها ولا فرق في ذلك بين أحد منهم ، والامر في النهاية مرجعه إلى اقتناعنا بوجهتهم واطمئناننا لفكرتهم .
« أستفت قلبك وإن افتاك الناس وأفتوك » .

واقفه يقول الحق وهو يهdy السبيل .

خلاصة

حركة الفقه الإسلامى

شرحت لك من قبل حركة الفقه الإسلامى وخلاصة ما قلناه
أولا : أنه فى عصر الرسالة والخلافة : اعتمد المسلمون على
الكتاب والسنة التى رأوا الرسول ينهاجها.

وأن السنة لم تدون خشية أن تختلط بالقرآن.

ثانيا : وأنه فى عصر المذاهب : نظمت مسائل الفقه
ووضعت لها القواعد والأصول وتكونت مجموعات من الآراء
سمى كل منها مذهباً، واتبعه فريق من الناس ودونوه وقلدوه.
ولاحظنا أن كل مذهب جديد كان يتجمع لديه من
الأحاديث التى يعتمد عليها أكثر مما تجمع لمن سبقه، فذهب أبى
حنيفة أكثر المذاهب عملاً بالرأى ومذهب أحمد بن حنبل أكثر
المذاهب اعتماداً على الحديث .

ثالثا : وأن حادثاً له خطره وقع فى عصر الإمام بن حنبل

هو تجميع السنة على نطاق واسع على يد البخارى أولا ، ثم توالى من بعده جوامع السنة ، فتغير الموقف وأصبح لزاما علينا أن نتبع السنة دون المذاهب :

١ - لأمر الرسول ولأن الأئمة أمرونا باتباع السنة قبل اتباع أقوالهم .

٢ - ولأن تدوين السنة جاء متأخرا عن المذاهب ولوسبقها لسل بها الأئمة واعتمدوا عليها .

٣ - ولأن بعض آرائهم جانبها التوفيق لعدم اعتمادها على السنة .

٤ - ولأنه لم يتجمع لدى المذاهب من مجموعات الأحاديث ما تجمع لدينا .

٥ - ولأن المذاهب اختلفت فيما بينها فى الفروع وفى أصول الفقه أحيانا .

٦ - ولأن خلافا أدى أحيانا إلى تعصب .

٧ - ولأن الخلاف قام بين مذهب ومذهب بل وبين أتباع المذهب الواحد أيضا .

- ٨ - ولأن الخلاف دائما سبيل إلى القرقة والعداوة .
- ٩ - ولأن من العبث التوفيق بين آراء المذاهب المختلفة .
- ١٠ - ولأن تقليد إمام واحد غير جائز وقد يستحيل .
- ١١ - ولأنه لا يوجد معيار للتفضيل بين المذاهب حتى تتبع أحسنها ، فانتشارها لم يرجع لأفضليتها وإنما رجع في الغالب من الأحيان إلى أسباب سياسية .
- ١٢ - أن ما نلتمسه من السنة الآن أكثر مما التمسوه ، نظرا لكثرة الأحاديث التي شملها التدوين وللكثرة وجود المطابع .
- رابعا : أن قفل باب الاجتهاد أدى إلى جمود المذاهب .
- خامسا : أنه قام دعاة ينادون بوجوب تأسيس الفقه على الكتاب والسنة وحدهما ، وأن دعوتهم إلى دقة السنة اقترنت بالدعوة إلى التوحيد ، ولعل الجامع بين الدعوتين هو الرغبة في توحيد صفوف المسلمين وعقائدهم .
- وذكرنا أن دعاة هذه الحركة هم ابن حزم الأندلسي ثم ابن القيم ، ثم محمد بن عبد الوهاب ثم الشوكاني .

سادسا : أن حركة فقه السنة في مصر الآن تقوم على اكتاف جماعة أنصار السنة وجماعة الإخوان المسلمين .

سابعا : أننا بتعبدنا بفقه السنة لا نلقى عنتا بعد ما خدم السنة علماء الحديث والرواية وفقه السنة . وأن الخلاف ضروري ما اختلفت العقول ، ولكن نصيب دائرته إذا اتحد المصدر الذي نستقي منه فقهنا .

وأننا لاستغنى عن آراء الأئمة كلية وإنما نرجع إليها باعتبارها وسائل استئناس وتفسير كلما أعوزنا نص في الكتاب أو السنة أو أعوزنا فهم النص وتفسيره . والامر في النهاية متروك لأطمئنان قلبك واقتناع فؤادك . وكذلك يجتريك ربك ويملكك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك .